

"البديع" لابن المعتز

بين الاجتهاد ودعوى التأثير الأجنبي

د. ملاح بناجي.

أستاذ مساعد مكلف بالدروس/قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كان السائد إلى غاية انتهاء العقد الثاني من القرن العشرين أن النقد والبلاغة العربيين قد نبتا وترعرا بين أحضان القرآن الكريم والشعر والنحو العربيين. هذا الواقع لم يكن محتاجا إلى عملية برهنة تفصيلية عميقة لإثبات ذلك المعين وتلك الأصول؛ مادام أن أغلبية عناوين المؤلفات الكبرى في البلاغة والنقد ومتونها تقوم مقام الشاهد والسلطان المبين في إثبات هذا الأمر بكل بساطة وعمق، وهنا لا بد أن نستثنى عملي حازم القرطاجني والسجلماسي (منهاج البلغاء وسراج الأدباء، والبديع في تجنيس أساليب البديع) حيث يسجل القارئ لهما الحضور القوي للفلسفة والمنطق فيهما من ناحية المنطلقات والدوافع والغايات ومنهجية التفكير والطرح والتحليل، ومن جهة المصطلحات الموظفة والإجراءات المستعملة في الدراسة والشرح والتفسير؛ ويبيهما بدرجة أقل كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر وقسم علم الاستدلال (الملحق بعلمي المعاني والبيان) من كتاب المفتاح أبي يعقوب السكاكي. وما كاد يلوح في الأفق العقد الثالث من القرن العشرين حتى تعرض هذا المعتقد السائد إلى هزات عنيفة من قبل الكاتب المصري طه حسين في سبتمبر من عام 1931م حيث قدم بحثا حول التأثير الكبير والبالغ لأرسطو في النقد والبلاغة العربيين في المؤتمر الثاني عشر للمستشرقين بمدينة لندن. وقد كتب لهذا البحث المثير أن صُلِّبَ به كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر تحت عنوان: البيان العربي من الجاحظ إلى الإمام عبد القاهر.

بنى طه حسين دراسته على فكرة مركزية كان فيها صريحا وواضحا، فحواها أن ما يقال حول أصالة البلاغة العربية وصفاء النقد العربي القديم ما هو إلا مجرد مزاعم وإدعاءات تفتقد إلى الكثير من الدقة والموضوعية، وإلى الحقيقة والصواب، وأنهما في مقابل ذلك إفرازات علمية ناجمة عن تأثير وع ومقصود بالفيلسوف اليوناني أرسطو من خلال مؤلفيه فن الخطابة وفن الشعر، وأن ما كتبه أعلام النقد والبلاغة إن هو إلا ترديد وتحوير؛ وتاليا لذلك يمكن الحكم عليهما بالتبعية والتقليد.

ومن أجل إثبات ذلك وإحقاقه عمد طه حسين إلى أربعة أعلام، هم الجاحظ، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وعبد القاهر الجرجاني، وبعد هؤلاء من مشاهير المؤسسين للبلاغة والنقد. أتكب صاحب مقولة التأثير الأرسطي في التراث العربي ممثلا في البلاغة والنقد على مؤلفات هؤلاء ليستخرج القرائن الدالة على صواب آرائه وصحة مواقفه وإدعاءاته، وكان تركيزنا في مقالنا هذا على ابن المعتز باعتباره العلم

النقدي والبلاغي الثاني الذي أثبت طه حسين في مؤلفه البديع التأثير اليوناني، يؤكد طه حسين في هذا الشأن: ((لم اطلع على كتاب البديع، هذا ولكن الذين نقلوا عنه أكثروا من ذكره كثرة تمكننا من تصوره، فهو عبارة عن تعداد لأنواع البديع مع الاستشهاد لكل نوع منها بشواهد من كلام القدماء والمعاصرين لابن المعتز، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض. وهم يقولون إن ابن المعتز أحصى في كتابه ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع من يدرسها في كتاب معاصره قدامة بن جعفر وفي كتب الذين جاؤوا بعده يلحظ فيها لا محالة أثراً بيناً في الفصل الثالث، من كتاب (الخطابة) وبعبارة أدق للقسم الأول من الفصل الثالث، وهو الذي يبحث في العبارة¹)، إنه يجزم بالأثر الواضح المتحقق لفصل العبارة الأرسطي الذي أنجزه ابن المعتز في كتابه البديع، وبذلك ينفي عنه أي إبداع أو أصالة أو جدة، وأن ما قام به هو محض السرقة والسطو، وهنا يقصي طه حسين تلك البواعث والأهداف التي ذكرها ابن المعتز في مقدمة كتابه، والتي رآها قميصاً استحدثه ابن المعتز ليلف فيه بدكاء وبفطنة ما أخذه واجتلبه من غيره.

لكن كيف كان هذا التأثير وما صاحبه من نقل واستعانة؟ ((لقد كان تصور هؤلاء المؤلفين من العرب للتشبيه والمجاز والمقابلة ووزن الكلام والفصول قريباً مما نجده في الموضع المذكور في كتاب الخطابة، نعم إنهم تحاشوا أن ينقلوا عن المعلم الأول جميع الأمثلة التي كان يمثل بها، لا شيء أكثر من أنهم لم يفهموا هذه الأمثلة. غير أنهم أوردوا مرة أحد أمثلة أرسطو، فعندما يقرر أرسطو أن المجاز يقوم على التشبيه يقول (عندما يقول هوميروس في حديثه عن أخيل (كر كالأسد فهذا تشبيه وعندما يقول: كر هذا الأسد، فهذا مجاز لأنه لما كان الرجل والحيوان في هذا المثال ممثلين بشجاعة صح أن يسمى أخيل أسداً على سبيل المجاز؛ خذ أي كتاب من كتب البيان العربي، فستجد فيه هذا المثال سوى أنه قد استعمل فيه لفظ (زيد) المألوف في شواهد البلاغة والنحو بدلاً من أخيل، وإذا فقد فهم العرب هذا المثال²)، في هذا النص ينتقل من التعميم إلى التخصيص فيدقق في المسائل التي تأثر فيها ابن المعتز بأرسطو وهي: التشبيه، المجاز المقابلة ووزن الكلام، الفصول، ودليله في ذلك أن التصور التي طرحت به هذه المسائل عند ابن المعتز قريبة من طرح أرسطو لها، إلا أن ابن المعتز وغيره من البلاغيين لم يسرقوا الأمثلة كما هي لعدم فهمهم لها، وإنما أوردوها مُحَوَّرة ووضبوها للمتلقي العربي، وضرب مثالا لذلك تغييرهم لأخيل بزيد.

إن ما طرحه طه حسين يستفيض فيه محمد مندور ويعمقه معتمداً على الموازنة والمقابلة بين نصوص ابن المعتز في كل مبحث من جهة والنصوص الأرسطية القائمة قرينة دالة على التشاكل القريب في طرح ابن المعتز للمفاهيم البلاغية الخمسة، والمنهج الذي سلكه محمد مندور منهج المقارنة النصية الذي يعتبر أهم وأقوى منهج في التدليل على التطابق أو التقارب والتقاطع بين قضيتين بين مشبتين ومنكرين لها، وقد استغرق عمل محمد مندور خمس صفحات، ((يقول ابن المعتز إنه لم يسبقه إلى ذلك أحد وأنه قد ألف كتابه سنة 274 هـ ولكننا نعلم أن حنين بن اسحاق (م 296 هـ) قد ترجم كتاب الخطابة لأرسطو مما يدل على أن هذا الكتاب قد عرفه العرب وليس بغريب أن يكونوا قد أحاطوا بموضوعه قبل ترجمة حنين³)، هكذا

فالسبق حسب ما أورده محمد مندور محض ادعاء، والسابق الحقيقي هو أرسطو موضحاً بالدليل التاريخي، وإذا كان طه حسين يذهب إلى أن ابن المعتز حوّل وغير فقط، فإن محمد مندور يذهب إلى إمكانية إحاطة ابن المعتز بالقضايا التي طرحها أرسطو، ((إن العرب قد فهموا تعاريف أرسطو لتلك الأوجه ثم اختلفوا في ترجمة الاصطلاحات أو وضعها للدلالة على ما فهموا، وهذا ما يفسر اضطراب تلك الاصطلاحات وعدم اتفاقهم عليها في العصر الذي تحدث عنه))⁴. إن هذه الآراء المستشهد بها في سياق التأثر من قبل طه حسين لا يعتد بها كثيراً بالقياس إلى ما قرره محمد شكري عياد حول طبيعة الترجمة لأعمال أرسطو - وهو من شيعه طه حسين مثل محمد مندور - ثم إن الربط بين الفهم والاختلاف في ترجمة المصطلحات الدالة على من؟ أعلى العرب أم المترجمين الأوائل؟ أم على المختصرين والشارحين من الفلاسفة العرب (الفارابي وابن سينا وابن رشد)؟ أم على علماء البلاغة الذين أخذوا من عند من؟ أم عند أرسطو مباشرة؟ أم من عند المترجمين؟ أم من عند الملخصين الشارحين من الفلاسفة؟

نظن أن الاختلاف في تمثيل المصطلحات وطرحها يرجع إلى عدة أسباب نذكر منها:

- التباين في تصور مفهوم كل مصطلح.
 - التباين في الانتماء الديني والمذهبي وفي التصور للأدب والجمال مفهومهما وماهية ووظيفة.
 - التباين في القراءة والفهم وفي نوع المتلقين الذين أخذ عنهم كل واحد وكل طائفة؟
 - قلة الدراسات والبحوث في هذا المصطلح أو ذاك.
 - ثم إن الاختلاف في الجهاز المصطلحي لكل باحث ليس بالضرورة مرجعه إلى نص أجنبي مترجم.
- من الردود التي جوبهت بها مقالتي طه حسين ومحمد مندور في شأن ابن المعتز نذكر ردود محمد الولي وفضل حسين عباس ومحمد أديوان. فأما محمد الولي فقد ناقش القضية من خلال رأي المستشرقين جوستاف جرونيباوم، وح. جرونيباوم، وح. كراتشوفسكي، فالأول من القائلين بالتأثير والثاني من المنتكرين له، ضارياً بذلك صفحا عن مناقشة الدارسين العرب المعاصرين لهذه القضايا، وكأنه يقول بطريقة غير مباشرة إن ما تداولوه إن هو إلا أصداء وظلال لما رده المستشرقون.

إن ما أنكر من أصالة العرب وابن المعتز في مباحث (الاستعارة والمجاز والتشبيه) ترفضه طبيعة الشعر العربي التي كانت تطفح بهذه الأدوات التعبيرية، فهي وسائل لتبليغ الشعر وتقنيات الكتابة الأدبية لإيصال الفكرة وتحقيق الإثارة وتحويل النص إلى شواهد وصور. ثم إن هذه القضايا تعرض لها من قبل علماء قبل ابن المعتز مثل المبرد الجاحظ وأبو عبيد وسيبويه، هذا الأخير الذي شكلت بعضاً من مباحثه اللبنة الأولى للعديد من المباحث البلاغية بخاصة عند عبد القاهر الجرجاني فيما يتعلق بمعاني النحو. إن النقد العرب اشتغلوا - فضلاً عن القرآن الكريم - بالنص الشعري العربي الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي. هذه هي مرجعية ابن المعتز ومن عاصره ومن تبعوه في تناولهم لتلك المباحث البلاغية، فماداً عن مرجعية التشبيه والمجاز والمقابلة ووزن الكلام والفصول؟

إنها ترد بالأساس إلى جنسين أدين عرفا عند اليونانيين وهما التراجيديا والخطابة، فالأولى لون قصصي محوره السرد وما يستلزمه من شخصيات وأحداث وزمان ومكان ولغة، والثاني وسيلة للإقناع وقد كشف أرسطو عن ضروبها والعناصر المشكلة لها من انفعال وبرهان وبناء لغوي، إن ((الاستعارة العربية غير الاستعارة عند أرسطو كما أن التشبيه عند بلاغيينا ليس التشبيه عند أرسطو كما أن المذهب الكلامي ليس هو المضمر أو القياس والمضمر عند أرسطو.. إن الأمر بسيط فلكي يؤثر أرسطو في البلاغيين العرب عليهم أن يواجهوا نصوصا إما تراجيدية أوخطابية أي تلك التي انطلق منها أرسطو لوضع نظريته في الخطابة والإنشائية، وما دام البلاغيون ينطلقون من نصوص شعرية فإنه من الصعوبة أن يتحقق تأثير أرسطو))⁵، إن هناك تباينا تاما في الفنون المدروسة المنطلق منها عن الطرف العربي، والطرف اليوناني، وعليه فوفق هذا الطرح الذي تقدم به محمد الولي لا يمكن الخوض في مسألة التأثير حتى يكون النوع الأدبي المشتغل عليه مشتركا بين الاثنين، ((وهذا كله يجعل الحديث عن تأثير أرسطو في ابن المعتز كلاما لا معنى له من الناحية العلمية))⁶، فالتشابه العرضي في اللغة الواصفة وفي الأفكار المطروحة ليس من البرهان المنطقي والعلمي في شيء، لأنه لو نعتمد على التشابه في إثبات قضية التأثير ما نجا أحد ولا سلم منه أبدا. والقياس في هذا الشأن يصلح في الكثير من المواطن. فهل تشابه كاتبين في اللغة أو في الأفكار، وهل تماثل طرفين في طريقة الكتابة أو في منهجية التفكير والاستدلال دليل على نقل طرف عن الآخر؟ وهنا نؤكد على التشابه الجزئي والكلي ولا نقصد التطابق التام.

وإذا انتقلنا إلى محمد أديوان فإنه يرد على القائلين بالتأثر الأرسطي في ابن المعتز من خلال محاور ثلاثة هي: على مستوى المنهجية، الإطار النظري لتفكير ابن المعتز وطبيعة الموضوعات المدروسة، عوامل موضوعية تتعلق بالوضع الذي كانت عليه ترجمة الآثار اليونانية في تلك الفترة، وهو وضع لا يساعد على انتشار هذه الآثار ولا شيوع تأثيرها وتحقيقها بصورة فعالة.

تقوم منهجية ابن المعتز في كتابه البديع ((على استقراء الواقع الشعري العربي بمختلف نصوصه القديمة والحديثة واستقراء النصوص القرآنية والحديثية من أجل الوقوف على الظواهر البديعية التي تتضمنها. أما طابع الذاتية في هذه الطريقة من الدراسة فتظهر في تناول ابن المعتز كل فن بديعي بالشرح والتحليل مستعينا بالنوع الأدبي الرفيع الذي كان يتمتع به، وطاقاته الإدراكية في تمييز الجيد من المعيب في الشعر. وهي طاقات شحنتها ممارسته الشعرية باعتباره شاعرا يعاني التجربة الإبداعية، وسهل عليه النفاذ إلى أعماق مستوياتها. وهذه النظرة الذوقية تنم عن حس عربي أصيل وعن ثقافة عربية مجافية لروح التعقيد والغموض الذي بدأ يتسرب إلى الفكر العربي من الثقافات الوافدة عليه))⁷، إن عمل ابن المعتز نابع عن معاناة أدبية جمالية وصلت إلى حد الخصومة والنزاع والتشيع، استحضرت فيها مختلف النصوص الدينية والأدبية ليس لذاتها، وإنما لاستخلاص ما احتوته في ألوان بديعية كانت مركز الجدل ومحور التفاضل فبارها

بالجمع والتنظيم والتفسير والتحليل كاشفا عن حسه وذوقه وتجربته بخاصة، وأنه رجل خبير بالشعر ممارس له، وكل ذلك مكنه من حسن التقديم لكل ظاهرة بديعية.

من هنا فالباعث على التحرك ذاتي موضوعي، ذاتي قائم على التفاعل والرغبة في لعب دور الحكم، وموضوعي باعتياده على نصوص أدبية لغيره من الشعراء، وإذا أضفنا إلى ذلك ((الفنون التي درسها ابن المعتز ليست مستمدة من خطابة أرسطو ولا فنه الشعري كما تزعم بعض الدعوات الشعبية المغرضة في عهد ابن المعتز وإنما هي فنون عربية أصيلة تناثرت في كتب القدماء.. ومن ثم فإن النقد الداخلي للكتاب يسفر عن تنزيه ابن المعتز عن الآثار اليونانية تنزيها تاما))⁸. بعد هذه القرائن يعرض لنا كيف أنه يمكن لأي ناظر أن يكتشف أن الترجمة وما يتبعها في شروح وتلخيص تضعف كثيرا من التأثير الذي أُلصق بابن المعتز. إذا انتقلنا إلى ثالث رد ألفينا فضل حسن عباس يركز على إرجاع مثال (أخيل أسد) (زيد أسد) إلى أصوله العربية، حيث يبين ((أن التشبيه بالأسد من صميم ما يترك العرب بطبائعهم وبيدهم لذا فنحن نجده في قوله الذي لا ينطبق عن الهوى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أعطي جوامع الكلم، وهو يقول عن حمزة سيد الشهداء رضي الله عنه في الحديث الصحيح حمزة أسد الله، وأسد رسوله، كيف يقال بعد ذلك بأن العرب أخذوا هذا المثال عن أرسطو وهو الذي فهموه وحمده دون غيره من الأمثلة))⁹. إذن فالمثال أصيل فلا الأخذ ولا التحوير قد حدثا.

ويشير فضل حسن عباس أمر عدم اطلاع طه حسين على كتاب البديع وهو لم يطلع عليه، ((لقد وضع طه حسين هذه المسلمات، وهو لم يطلع كتاب ابن المعتز ولكن ما عساه أن يكون إلا صدى لما ذكره شيخ البيان العربي أرسطو طاليس))¹⁰، وفعلا كيف تستقيم تلك الأحكام الناقضة للقيمة التاريخية والعلمية لكتاب البديع لابن المعتز، وطه حسين لم تكتب له فرصة الاطلاع على الكتاب، ففرق كبير أن تقرأ فتتقد وتستخلص النتائج والأحكام، وبين أن تسمع عن غيرك، فتبني على إثر ذلك مواقف وأحكاما بخاصة إذا كانت تتعلق بحياة أو موت فكرة أو مجموعة من الأفكار في أي حقل من حقول المعرفة والثقافة.

أما عباس رحيله فإن رده كان من خلال التأريخ للمصطلحات والمفاهيم التي ساقها ابن المعتز في كتابه البديع وذلك من خلال إثبات جذورها البلاغية في التراث العربي.

القضية	أصولها
الاستعارة	أبو عمر بن العلاء، أبو عبيدة، الجاحظ، ابن قتيبة، المبرد، ثعلب.
التجنيس	الخليل بن أحمد، الأصمعي، ثعلب (المطابق)، المبرد (كتاب: ما اتفق لفظه واحتوى معناه في القرآن المجيد)، ابن سلام الجهمي (كتاب: الأجناس في كلام العرب وما اشبهه في اللفظ واختلف في المعنى)، ابن قتيبة (في تأويل مشكل القرآن، باب:

اللفظ الواحد للمعاني المختلفة، وفي أدب الكتاب باب أسماء يتفق لفظها وتختلف معانيها)، (باب الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها).	
المطابقة	الخليل، الأصمعي، المبرد، ثعلب (مجاورة الأضداد).
رد الأعجاز على ما تقدم	المعنى عند عبد الله بن المقفع المثبت في البيان والتبيين، أما المصطلح فمن عند ابن المعتز.
المنهـب الكلامي	الجاحظ

وبعد عرضه لجنور المفاهيم والمصطلحات في التراث العربي بنصوص موثقة في مصادرها يعقب عباس أرحيلة موضحا ((أن مصطلحات ابن المعتز نابعة من سلسلة التطورات التي عرفتها مرحلة التأسيس لعلم البيان العربي، وأن التشابه بين فكرتين لا يكفي لإثبات التأثير والتأثير وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأساليب التجوز في التعبير مما تشترك فيه سائر اللغات، ويشترك فيه أفراد النوع الإنساني))¹¹. إن إثبات التأثير والتأثير لا يكون صحيحا سليما إلا من خلال النصوص بعد أن يثبت تطابقها في ذاتها، وفي السياق الذي عرضت فيه، أما التأثير والتأثير النسبي، فلا يمكن لأحد أن يثبت حقيقتهما كحكم من يشتغل على نصوص ظنية الدلالة، فمهما يتأتى له من جهد وذكاء وحسن قياس ونظر وقوة استقراء واستنتاج فإن النتيجة في أقصى ما يمكن لن تخرج عن حدود الاجتهاد القابل للرد والقابل أن يقع بعده اجتهاد، لأن طبيعة النص هي التي فرضت ذلك، وصاحب النص أرادها كذلك من حيث قصد أم لم يقصد. هذا إذا كان النص بشريا أما إذا كان النص ربانيا فلله سبحانه وتعالى حكم وأسرار ومقاصد من وراء ذلك لا يعلمها إلا هو، (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) آل عمران 7.

الإحالات:

- 1_ طه حسين، لسان عربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني، مقدمة نقد اثر لقائمة بن جعفر، للكتبة العلمية، لبنان، 1980. ص 12.
- 2_ طه حسين، لسان عربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني، ص 12.13
- 3_ محمد منور، نقد للنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، دار لمحة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1969. ص 58.59
- 4_ محمد منور، نقد للنهجي عند العرب ص 60.
- 5_ فؤاد محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والفنّي، للركز الثقافي العربي، المغرب، 1990 ص 35.
- 6_ للرجع نفسه، ص 35.36
- 7_ محمد أدوان، سؤال الحداثة في الشعرية العربية لقائمة، شركة النشر والتوزيع المنار، المغرب، 2000، ص 33. 34
- 8_ محمد أدوان، سؤال الحداثة في الشعرية العربية لقائمة، ص 34.35
- 9_ فضل حسن عباس، البلاغة للقرى عليها بين الأصالة والتجديد، دار الفرقان بالأردن، 1999، ص 187.
- 10_ للرجع نفسه، ص 184.
- 11_ ينظر، عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في نقد والبلاغة لعربين إلى حدود لقرن لثمن لبحري، منشورات كلية الآداب ولعلوم الإنسانية لطنز، المغرب، 1999. ص 326
- 12_ للرجع نفسه، ص 328